يوميات الشقاء في غوانتانامو

غوانتانامو صنع وحوشا بشرية من أناس أبرياء

فيلم «الموريتاني» يفضح ما ارتكبته الإدارة الأميركية من فظائع

صورة الإرهاب والإرهابيين كانت ولا تزال علامة فارقة في السينما الأميركية. وهو تراكم طويل كان العرب والمسلمون أول ضحاياه. فلم تنصف تلك الأفلام قط مجتمعات بملايين من البشر حيث أظهرت أسوأ ما فيها من شخصيات. لكن هناك أفلام أخرى كشفت خفايا أكثر صدقا عن واقع العرب المشوهين على غرار فيلم "الموريتاني".

طاهر علوان
كاتب عراقي

كرست السينما الأميركية صورة مزرية للعرب كان قد ناقشها الراحل جاك شاهين في كتاب قيم عن صورة العرب الأشرار في السينما الأميركية، مستعرضا عشرات من الأفلام منذ بدايات السينما الأميركية حتى سنوات قريبة من وفاته.

صورة الموريتاني والعربي والمسلم عموماً وقد اقترنت بأسوأ بقعة مكانية على مر التاريخ ألا وهي سجن غوانتانامو الفظيع هي ما نشاهده من خلال فيلم «الموريتاني» للمخرج الأسكتلندي كيفن مكدونالد في إضافة أخرى إلى منجزه الممتد للعشرات من الأفلام الروائية ونيل جائزة الأوسكار عن فيلم وثائقي.

الموريتاني محمد ولد صالحي (الممثل الجزائري – الفرنسي طاهر رحيم) سوف يظهر في لقطات سريعة يفتتح بها الفيلم، وهو يمضي فيها عطلته بصحبة أهله وأقاربه في حفل زفاف عائلي، لتصله قوة من البوليس، وينتهي به الأمر مختفيا طيلة ثلاث سنوات ولا يعلم أحد عنه شيئا.

ولد صالحي شخصية حقيقية كان قد حصل على منحة دراسية في ألمانيا، وبمجرد وصوله إلى بلاده وحيث كانت قضية إرهاب 11 سبتمبر في ذروتها وبوش يصول ويجول حاملا راية البطولة والشجاعة يكون قد انتهى به المطاف إلى غوانتانامو.

في التفاصيل الأخرى السجناء المعزولون عن العالم وتدار في حقهم عمليات نفسية معقدة وعمليات تعذيب وانتزاع للمعلومات سوف يمرّ بها ولد صالحي فيما هو يكتب رسائله.

سوف يجد ولد صالحي نفسه في إطار ثلاث شخصيات هي التي سوف تقلب مصيره بشكل كامل، وهم المحامية الشرسة نانسي هولاندر (الممثلة جودي فوستر) ومساعدتها تيري دونكان (الممثلة شيرين وودلي) والمحقق العسكري ستيوارت كوتش سيديل (الممثل بينيدكت كومبرباتش).

الطبيعة المكانية المعلومة لسجن غوانتانامو والشخصيات من الجلادين والمحققين تتكامل في ذهن هولاندر وهي تشرع في قراءة ملف ولد صالحي ولتكتشف اعترافاته تحت التعذيب وكل جريمته أن قريبا له التحق بن لادن وأراد أن يطمئن عائلته فاتصل بولد صالحي بهاتف أقمار صناعية يعود لبن لادن، لكن ذلك لا يكفي إذ يتم مرارا وتكرارا عرض أسماء مروان الشحي ورمزي بن الشيبة وغيرهم من الشخصيات المتورطة في جريمة سبتمبر.

يستخدم المخرج العديد من طرق السرد السينمائي لتجاوز النمطية المعتادة في مثل هذه الافلام، فهو يغوص في شخصية ولد الصالحي ويعود به إلى ذكرياته وطفولته التي تتكشف تباعا، وبذلك فإنه ظل يحاكي شخصية بشرية عادية وليس وحشا، ومن هنا سوف تكشف الرسائل التي سوف يكتبها عن العالم الحقيقي الذي يعيش فيه وهي الرسائل التي تمت مراقبتها من طرف الاستخبارات التي تدير المعتقل وشطب أبرز ما فيها من حقائق.

وخلال ذلك كان هنالك خطّان دراميان وسرديان يسيران بالتوازي وهما الخط الذي تمثله المحامية الشرسة نانسي ومساعدتها والخط الذي يقوده المحقق العسكري، فالمحامية كما سيظهر ليست معنية بالدفاع عن ولد الصالحي بقدر دفاعها عن الحقيقة وهو ما سيظهر عندما تقرر مساعدتها ترك العمل في الملف متأثرة بدعاية شرسة ضد تلك الوحوش البشرية.

في المقابل يرسم المخرج دورا مختلفا للمحقق العسكري الذي هو أيضا باحث عن الحقيقة المجردة، بينما رؤساؤه يحثّونه على سرعة إصدار قرار الإحالة بأقصى عقوبة ضد ولد صالحي، بينما هو يبحث عن أدلة كافية للإدانة. الكل يدور مع دوران ماكنة سلطوية مقفلة لا قرار لها ومجرد سماع أي اسم مرتبط بأحداث 11 سبتمبر فهو وحش بشري مهما كان، لكن للمحامية والمحقق العسكري وقفات أمام أطنان من الوثائق والاعترافات المكدسة في صناديق المخابرات والمحققين وكلّها بلا أدلة وفيما ولد صالحي يمضي سنوات امتدت الى 14 عاما بلا دليل إدانة ولا حكم قطعي.

على أن التحوّل الذي يشترك به كل من المحامية والمحقق على السواء هو ساعة أن يلتقيا في إطار حبكة درامية قوية سوف تدفع بالأحداث إلى الأمام، وهي اطلاع المحامية على الرسائل الشخصية لولد صالحي والتي يروي فيها لعائلته وأمه الحقيقة، ويشرح يومياته، وعلى الجانب الآخر التسجيلات شديدة السرية التي اطلع عليها المحقق العسكري والتي تكشف كيف تم تطبيق بروتوكولات التعذيب الممنهج بحق ولد صالحي بحسب توجيهات وزير الدفاع اليميني المتطرف في عهد بوش ديفيد رامسفيلد.

ولنعد إلى معطيات راسخة في تلك التراجيديا وهي ارتباط ذلك المكان وتلك الشخصيات بعمليات تعذيب ليس لها مثيل في التاريخ، وكان على المخرج فضحها بالكامل من خلال مشاهد مصنوعة بعناية شديدة هي خلاصة العبقرية الأميركية في انتزاع الاعترافات من الإيهام بالغرق والحرمان من النوم والسجن في مكان شديد البرودة والاعتداءات والتحرشات الجنسية وغيرها كثير.

يكفي أن قصة ولد صالحي البريء بعد 14 عاما من السجن في غوانتانامو والتعذيب الممنهج انتهت به حرًا لتتحول قصّته إلى موضوع عالمي ينتهي بنشر يومياته في غوانتانامو في كتاب ترجم إلى العديد من لغات العالم، وهو ما يظهر في لقطات وثائقية مؤثرة في نهاية الفيلم.

الفيلم له خطان دراميان وسرديان يسيران بالتوازي وهما الخط الذي تمثله المحامية والخط الذي يقوده المحقق العسكري

«مفاتيح مكسورة».. الإرهاب يحاصر الموسيقيّ الوحيد

عازف البيانو في مواجهة داعش، صورة مهتزّة وتراجيدية يكفي أنها تختصر معادلة الهلع من الموسيقى وفتاوى التكفير وقطع الرؤوس في وسط خراب بشري ومكان منقطع النظير.

وخلال ذلك تضرب موجات الأمل في نجاة البقية الباقية من البشر المحاصرين بقدرهم، والذين يحاولون أن يجدوا لأنفسهم مخرجا من الدائرة المقفلة التي وجدوا أنفسهم فيها، وهو ما يقدّمه المخرج اللبناني جيمي كيروز في فيلم "مفاتيح مكسورة" الذي شارك في مهرجان كان، وقيل إنه رشّح من طرف لبنان لمنافسة الأوسكار التي لم يفز بها أي فيلم عربي.

ولنعد إلى عالم الموسيقى الذي يمثله الشاب كريم (الممثل طارق يعقوب) وهو يقبع في وسط ما بقي من الخراب في وسط قرية سورية نخرتها الحرب وحولتها إلى ركام من الحجر والإسمنت، فيما تدب حياة صامتة لبضعة شخصيات في عمق ذلك المكان الخرب.

وكأننا أمام مشهد مسرحي أكثر منه سينمائي، إذ يقدّم المخرج ببراعة في مشهد مصنوع بعناية شديدة شخصيّاته الرئيسية، وفي الوقت ذاته يعرّف بمحيط شخصية كريم، الكاميرا النشطة تنتقل من شخصية إلى أخرى بانسيابية وجمالية بالغة لنشاهد تلك الشخصيات وقد احتمت بنفسها في وسط بناية محطمة حتى صار المكان أشبه بصالة كبيرة تتسع لحياة الجميع.

كريم وهو يعيش وحيدا بعد فقد والديه يسعى للبحث عن مخرج من المحنة عن طريق مهرّب، ويريد بيع البيانو الخاص به لجمع المال لهذا الغرض، لكنّه في كل حركة يتحرّكها هنالك الدواعش يتربّصون به ثم يهجمون على المكان ويرشقون البيانو بالرصاص.

محنة الشخصية المركبة قليلة الكلام هي التي كرسها هذا الفيلم بشكل إنساني عميق، إذ كان كريم تجسيدا لحالة الضياع الكامل والوجود الخاطئ في الزمان والمكان، فهو بسيط في اهتمامته والتعبير عن نفسه فما بالك وهو يواجه تلك الشراسة المتناهية والتي تنتهي به وهو يقطع أراضي مقفرة لكي يذهب إلى قرية أخرى وليجلب مواد يصلح بها البيانو الذي تحطّمت أجزاء منه.

تلك الرحلة كانت كافية ليلتقي بفتاة تحمل السلاح (الممثلة سارة أبي كنعان) والتي سوف تدخله في دوامة أخرى من خلال مساعدتها للهرب بصفتها زوجة له، وهو ما يفعله ليتركها في قرية قريبة تجد فيها ملاذا.

بالطبع كان هنالك المزيد مما يمكن الاشتغال عليه من حوار إنساني عميق بين الشخصيتين اللتين من خلالهما كان بالإمكان كشف المزيد والمزيد من هول الواقع المعاش بدلا من مشاهد المدرسة وحرق داعش للكتب المدرسية وتجنيد الأطفال، وهي مشاهد مكرّرة ومعلومة ولا جديد فيها وحتى تنفيذها لم يكن في مستوى ما تم تقديمه من مشاهد من وجهة نظر كريم.

بالطبع مجرّد مشاهد الحطام والبيانو سوف تحيلنا بالذاكرة وفورا إلى فيلم "عازف البيانو" الشهير للمخرج رومان بولانسكي، الذي بقي علامة فارقة أضيفت لصراع الموسيقى في مواجهة الغزو النازي، وها نحن مع الموسيقى في مواجهة الغزو الداعشي.

التصوير في مدينة الموصل العراقية أعطى الكثير من المصداقية للفيلم واستثمر مدير التصوير جو سعد المكان بشكل مميز وأبرز عناصره ومميزاته وتحرّكت الكاميرا في موازاة الشخصيات بمهارة ملحوظة فضلا عن التنوع البصري في مشاهد اللقطات من الدرونز والزوايا المختلفة فضلا عن توظيف عناصر الإضاءة وهي تحسب له أيضا.

وأما على الجانب الآخر فقد كانت الموسيقى التصويرية التي وضعها غابريل يارد إضافة وإثراء بخبرته الواسعة وحضوره في العديد من الأفلام السينمائية، وحيث منحتنا موسيقاه إضافة جمالية وعمقا إنسانيا وواقعيا خرج الفيلم من امتحان الصوت والضجيج الذي تقع فيه أغلب الأفلام العربية بأن ترك للصورة أن تقدم لنا الحقيقة، فيما تكمل الموسيقى التصويرية جوانب مهمة من تعبيرية المشاهد واللقطات.

الفيلم قدم لنا صورة بانورامية متنوّعة وغزيرة التعبير بسعيه للإحاطة بتفاصيل عديدة ومتشعبة حول أهوال داعش

على أننا وعلى صعيد الحبكة السينمائية كنا بحاجة إلى مزيد من التعمق في الأزمة الإشكالية التي وجد كريم نفسه في وسطها، وواضح أن المخرج أراد أن يقدم توصيفا بصريا لكل شيء من ممارسات داعش إلا الإعدامات والفارمانات التي كان يصدرها بحق المخالفين، وهي ما كانت تتكرّر بينما كانت قضية كريم تضعف أمام ذلك المد.

في المقابل كان هامش العلاقات الإنسانية والتفاعل بين الشخصيات هو العنصر الملفت في تلك الدراما بالإضافة إلى مشاهد حبس الأنفاس ساعة المرور على نقاط التفتيش الداعشية، فضلا عن العلاقة المؤثرة بين كريم وبين الطفل زياد.

وتأسيسا على ذلك كان لا بد للمخرج أن يصل بنا إلى ذروة ما وبهذا فقد كرّس مساحة للمواجهة بوجود مقاومة شعبية لداعش سوف تستخدم موسيقى كريم، وهو يتجرأ على عزف البيانو في الخارج مستخدما مكبرات الصوت ليثير جنون الدواعش، ومن ثم يصبح احتشادهم سببا في اصطيادهم.

لا شك أن الفيلم قدم لنا صورة بانورامية متنوّعة وغزيرة التعبير بسعيه للإحاطة بتفاصيل عديدة ومتشعبة بينما كانت هنالك إشكالية معقدة تتعلق بوجود كريم من جهة واللقاء العابر وغير الحيوي بالفتاة ثم الذهاب إلى قرية أخرى وما إلى ذلك من تفاصيل.

* ط .ع

موسيقى البشر المحاصرين في مواجهة الإرهاب

أوسكار عربي على الطريقة الأميركية

دخل العرب سباق الأوسكار مرّات عدّة لكنّهم لم يظفروا بأي جائزة حتى الساعة.

ما تزال التجارب السينمائية العربية بحاجة إلى مزيد من إتقان الصنعة وصناعة الأسلوب الذي هو خميرة تميّز تجارب الشعوب السينمائية، في المقابل تجمع جائزة الأوسكار ما تريده لمسابقاتها في القسم الدولي من العديد من دول العالم لتنتقي ما هو أفضل، لكن لم تكن أفلامنا هي الأفضل من وجهة نظر لجانهم التحكيمية.

ولننظر إلى الجانب الآخر، عن تلك الرابطة الوشيجة بين جوائز الأوسكار والغولدن غلوب، وكيف يكون ما يرشح عن هذه الأخيرة يدخل المنافسة غالبا في مسابقة الأوسكار.

هذا النوع الفريد من "الفلترة" الضرورية صنع تقاليد عمل في مجال المسابقة والجوائز.

على الجهة الأخرى أوروبياً، هنالك مسابقة للسينما الأوروبية تقام سنويّاً في بروكسل، وقد حضرت شخصيّاً دورات عدّة منها، وهي تتويج أخير للأفلام التي أنتجت في 27 دولة أوروبية يتم التباري في ما بينها لنيل الجوائز الأوروبية.

أما على صعيد المسابقات السينمائية في العالم العربي، ولا وجه للمقارنة بالطبع مع تلك المسابقات العالمية الرصينة، فإن اجتهادات المهرجانات هي الغالبة.

في أحد المهرجانات العربية وكان معي زميل ناقد سينمائي وشاهدنا معاً أحد الأفلام واستغربت في حينه لماذا أدرج ذلك الفيلم المفبرك ضمن المسابقة الرسمية؟ لكن صديقي قال ضاحكاً، انتظر وسوف ترى كم سينال هذا الفيلم تحديدا من جوائز، وأما لماذا فلا أستطيع أن أخبرك، وبالفعل كان القائم على الفيلم لا يتسع حضنه للتماثيل الجامدة التي أعطتها له إدارة المهرجان.

الحاصل، أن هنالك اجتهادات شتى لكن ذلك لا يعني غياب المعايير في مهرجانات أخرى لكن القصة برمتها بحاجة إلى عملية تنظيم وتنسيق تنهض بها جهة ما، وهي ما يشبه الأوسكار العربي الذي تتم فيه الترشيحات السنوية لقائمة أفضل الأفلام العربية التي تم إنتاجها في ذلك العام.

بالطبع هي فكرة قد تبدو خيالية لكنها مطلوبة بشكل جدّي، مع أنه من المعلوم أنه ستكون هنالك ردود أفعال متوقّعة في مثل هذه الحالة حول لجان التحكيم والاعتراض على نتائجها ومقالات الهجاء وما إلى ذلك مع أن مثل هذا السلوك لا نجد له شبيها في المسابقات التي تقام من حول العالم.

الفكرة في أساسها تعود إلى أن الجمهور في العالم العربي لا يعلم شيئا تقريبا عن أية أفلام جديدة ولا من هم مخرجوها، إلى درجة أن ذلك الجمهور بإمكانه أن يحصي المسلسلات التي تم إنتاجها في ذلك العام ومشاهدتها أو مشاهدة كثير منها، لكنه لا يعلم شيئا عن فيلم مهم أُنتج في الجزائر أو المغرب أو الأردن أو سوريا أو السعودية أو غيرها.

تنمية السينما في العالم واحدة منها الترويج للأفلام وللمخرجين وللتجارب السينمائية مما يؤدي إلى لفت النظر إلى مهارة المخرج وكاتب السيناريو ومدير التصوير والمدير الفني وباقي الفريق، لكن كل هؤلاء مجهولون بالنسبة إلينا، والمسابقات السينمائية العربية مقصّرة في عملية الترويج، إذ أنها بإسدال الستار عن دورة المهرجان تكون قد أخلت ذمّتها تجاه جميع الأفلام المعروضة.

* ط .ع